سطور
OSTOUR

Received التسلم
2022-11-16

Revised التعديل
2023-06-25

Accepted القبول
2023-07-08

DOI: https://doi.org/10.31430/BWBQ2990 :الرقم التعريفي

البيضاوية بلكامل | Al-Bidawiya Belkamel*

بيمارستانات المغرب الأقصى: من العصر الموحدي إلى بداية زمن الحماية (1199-1912م)

Hospitals of the Maghreb: From the Almohad Era to the Beginning of the Protectorate (1199-1912 AD)

يعتبـر بيمارسـتان مراكش من عهـد الخليفة الموحدي يعقـوب المنصور (ت. 595هـ/ 1199م) أقدم بيمارسـتان مغربي، مـن حيث البناء والتجهيز والقائمون عليه. ولعل بيمارسـتان شـالة المنسـوب إلـى الخليفة نفسـه، أدّى الأدوار العلاجية والتعليمية نفسـها نظرًا إلى موقعه الاسـتراتيجي للجهاد في الأندلس. انتشـرت هذه المؤسسـة بعـد ذلك عبر حواضر مغربية عدة، بفضل عناية ملوك بني مرين الأوائل بها. وتراجعت أهميتها وعددها، وأصابها ما يصيب البشر من هرم بسبب الحـروب والمجاعات والأوبئة، على الرغم من جهود بعض سلاطين الدولتين السـعدية والعلوية. واندثر معظمها، وتغيّرت وظائف ما بقي منها صامدًا، ومسّ التغيير مبناها ومعناها، وذلك منذ بداية عصر الحماية، حيث اعتبرت "مارسـطانات"؛ أي ملجأً للحمقى والمعتوهين.

كلمات مفتاحية: المغرب، الموحدين، بيمارستانات، مارسطانات.

The *bimaristan* hospital of Marrakech, built during the era of Almohad Caliph Yacub al-Mansour (d. 1199 AD), is the oldest in Morocco. The same Caliph was responsible for the establishment of a *bimaristan* in Chellah, Rabat, which played similar therapeutic and educational roles due to its strategic location for Muslim conquest of Iberia. The institution of the *bimaristan* subsequently spread to several other Moroccan cities, thanks to the efforts of the early Marinid Sultans. Yet these institutions later declined in number and importance, and were neglected due to wars, famines and epidemics, despite the efforts of the Saadian and Alaouite states. Most disappeared and the remainder changed, both in structure and function, from the start of the protectorate onwards, as they came to be used as "*maristans*"; mental hospitals.

Keywords: Morocco, Almohads, Bimaristans, Maristans.

* جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، المغرب.
Mohammed V University, Faculty of Letters and Humanities, Rabat, Morocco.
belkamel_bida@yahoo.fr

مقدمة

تكتسي دراسة المؤسسات الطبية أهمية كبرى، بحكم أنها مقياس حضاري لمدى اهتمام أمة ما بصحة أفرادها ورعاية مرضاها. لذلك نعتبر موضوع البيمارستانات من الموضوعات التي تستحق أكثر من دراسة، لارتباطها الوثيق، من جهة بالتراث الإسلامي، ومن جهة أخرى لقلة المهتمّين بها، نظرًا إلى الإجحاف الشديد الذي لحق وظائفها وأدوارها الطبية والنفعية، وأساسًا بالطرف الغربي للعالم الإسلامي؛ حيث اعتُبرت "مأوى للحمقى والمجانين". متى انبثقت البيمارستانات في المغرب الأقصى؟ وأين؟ ما رسمها من خلال الإشارات المصدرية؟ وما وظائفها ومختلف أدوارها؟ وما البيمارستانات الماثلة للعيان؟ وما المُرمّم منها؟

انتشرت البيمارستانات بالتدريج في طرفي العالم الإسلامي، وكان أول ظهور لها في المغرب الأقصى، وفق ما تتيح المصادر التاريخية من معلومات، خلال **العصر الموحدي**[1]. وبعد ذلك، تتعدد الأصناف والأشكال، بل توافر في المدن، سواء في العواصم، مثل مراكش وفاس ومكناسة الزيتون، أم في المدن الاستراتيجية، مثل تطوان والقصر الكبير وتازة وشالة ورباط الفتح وسلا وأسفي والصويرة، بيمارستان أو أكثر، كما سيأتي بيانه.

أولًا: بيمارستان الحاضرة المراكشية الموحدي هو الأقدم

ركزت المصادر المغربية والأجنبية على حاضرة مراكش أكثر من بقية مدن المغرب الأقصى، على اعتبار أنها صارت في عهد الخليفة الموحدي يوسف بن عبد المومن "أوسع معاشًا وأكثرها خلقًا وأربحها تجارة"[2]. بل تميز عهد ابنه يعقوب المنصور (ت. 595هـ/ 1199م) بالقوة[3]، وإليه يُسنَد بناء أقدم بيمارستان في المغرب، الذي سيحمل اسم "دار الفرج"[4]. وطّنه صاحب كتاب **الاستبصار في عجائب الأمصار**[5] - المعاصر للخليفة يعقوب المنصور - في "القصبة، شرقي المسجد الجامع"، حيث ذكر: "وضع دار الفرج في شرق الجامع المكرم، وهو مارستان المرضى، يدخله العليل فيعاين ما أعد فيه من المنازه والمياه والرياحين والأطعمة الشهية والأشربة المفوّهة، ويستطعمها ويسيغها فتنعشه من حينه"[6].

---

1 ظهرت الإرهاصات الأولى للمؤسسات الطبية التي ستحمل مسميات عدة، ومنها تسميتها بدور الشفاء والبيمارستانات (دور المرضى) قبيل صدر الإسلام، وبدأت تتشكل تدريجًا في عهد الرسول الكريم الذي ربط بين علم الأديان وعلم الأبدان، وخلال العصر العباسي انتشرت البيمارستانات بمختلف الأصقاع الإسلامية، في بلاد الشام ومصر وغيرهما. للمزيد، ينظر: أحمد عيسى بك، **تاريخ البيمارستانات في الإسلام** (دمشق: المطبعة الهاشمية، 1939)؛ البضاوية بلكامل، "البيمارستانات وأدوارها التطبيبية والتعليمية، بيمارستانات الرباط نموذجًا"، في: **الثقافة أساس التفاهم والتطور والحوار: أعمال ندوة تكريم الدكتور محمد ابن شقرون** (الرباط: منشورات المعهد الجامعي للبحث العلمي، 1999)، ج 1، ص 267-287؛ البضاوية بلكامل، "إشكالية بيمارستان القصر الكبير"، في: **مدينة القصر الكبير: الذاكرة والحاضر: أعمال الندوة المنظمة من 1 إلى 3 أبريل 1998**، تنسيق وتقديم محمد المغراوي، سلسلة الندوات، رقم 1 (سلا: منشورات مجموعة الدراسات والأبحاث حول القصر الكبير، 2000)، ص 143-153؛

Bidaouia Belkamel & Boujemaa Raouyane, "Les bîmâristâns au Maroc," in: Driss Mossaoui & Michel Roux-Dessarps (dir), *Histoire de la médecine au Maroc et dans les pays arabes et musulmans* (Casablanca: Najah el Jadida, 1995), pp. 47-50.

2 محمد المغراوي، **الموحدون وأزمات المجتمع** (الرباط: جذور للنشر، 2006)، ص 164.

3 المرجع نفسه.

4 مجهول، **الاستبصار في عجائب الأمصار**، نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد (بغداد: دار الشؤون الثقافية، 1986)، ص 210. ورد ت المعلومات نفسها أيضًا في: محمد بن أحمد العبدي الكانوني (1310-1357هـ/ 1893-1941م)، **تاريخ الطب العربي في عصر دول المغرب الأقصى**، تحقيق علال ركوك ومحمد بالوز (الرباط: مطابع الرباط نت، 2013)، ص 79.

5 مجهول، **الاستبصار في عجائب الأمصار**، ص 210.

6 المرجع نفسه.

نتعرف إلى عمارته وتأثيثه والنفقة عليه والعاملين فيه والمستفيدين من خدماته من خلال ما ذكره عبد الواحد المراكشي (621هـ/ 1224م)، صاحب **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**، حيث قال[7]: "وبنى (يعقوب المنصور) بيمارستانًا ما أظن أن في الدنيا مثله، وذلك أنه تخير ساحة فسيحة بأعدل موضع في البلد. وأمر البنّائين بإتقانه على أحسن الوجوه، فأتقنوا فيه من النقوش البديعة والزخارف المحكمة ما زاد على الاقتراح، وأمر أن يغرس فيه مع ذلك من جميع الأشجار المشمومات والمأكولات، وأجرى فيه مياهًا كثيرة، تدور على جميع البيوت، زيادة على أربع برك في وسطه إحداها رخام أبيض"[8].

تفيد هذه المعلومات – على الرغم من شُحّها - بترتيب بيمارستان مراكش ضمن أرقى بيمارستانات العالم الإسلامي خلال التاريخ الوسيط وأجملها، بل متى رددنا كلام عبد الواحد المراكشي بحذافيره، يمكن اعتبار بيمارستان مراكش من المؤسسات الطبية التي عزّ نظيرها، فقد قال معجبًا به: "ما أظن أن في الدنيا مثله"[9]. ولا شك في أن تصميمه المستطيل الشكل سمح باصطفاف البرك الأربع التي زُيّنت إحداها بالرخام الأبيض البديع. وسمح تصميمه المستطيل كذلك بالتفاف البيوتات (الغرف) العديدة المخصصة للمرضى، فضلًا عن المرافق الوظيفية الأخرى؛ وهي متعددة: غرف القومة، مستودعات الأدوية، مخازن الألبسة والأفرشة، بيوت النظافة، مطبخ ... إلخ. تميز أيضًا بحديقته المزدانة بأنواع كثيرة من "المشمومات والمأكولات". أما بالنسبة إلى الزخرفة، فتتمثل في النقوش والزخارف البديعة التي "زادت عن الاقتراح" وفق عبارات صاحب **المعجب**[10]. فلا يمكن تمثّلها إلّا باستحضار النماذج المعمارية الإسلامية، ومنها زخارف المدارس التي تضمّنت نقوشًا وزخارِفَ - سواء في الأرض المغربية أم خارجها - من العصر الموحدي، خاصة من عهد الخليفة يعقوب المنصور، باني رباط الفتح.

وستزيد الفُرش وبقية أشكال الأثاث من قيمة المبنى، لأنه كما نعلم، الأثاث - من الصوف أو الخشب أو الجلد أو غيرها - من المواد التي أبدع فيها الحرفي المغربي منذ غابر الأزمان، إلّا أنها من المواد المعرضة للتلف، وبذلك لن نعرف شكل الأثاث في البيمارستان الموحدي إلّا من خلال ما ذكره صاحب **المعجب**، فهو حجّتنا الوحيدة للحديث عن الرفاه في التأثيث.

ومما لا ريب فيه كذلك أن الخدمات الطبية التي كانت تُسديها البيمارستانات لخاصة الناس وعامتهم متعددة، وبيمارستان مراكش الموحدي واحد منها. يتجلّى الحرص على كرامة المريض، وتوفير شروط الراحة له، من خلال عناية الخليفة نفسه بالمرضى؛ يعطي هذا الأمر المؤسسة وبانيها قيمة أكبر. قال المراكشي في هذا الشأن[11]: "ثم أمر له من الفرش النفيسة من أنواع الأصواف والكتان والحرير والأديم وغيره مما يزيد على الوصف ويأتي فوق النعت، وأجرى له ثلاثين دينارًا في كل يوم برسم الطعام وما ينفق عليه خاصة، خارجًا عما جلب إليه من الأدوية. وأقام فيه من الصيادلة لعمل الأشربة والأدهان والأكحال[12]، وأعدّ فيه للمرضى ثياب ليل ونهار للنوم، من جهاز الصيف والشتاء، فإذا نقه المريض، فإن كان فقيرًا أمر له عند خروجه بمال يعيش

---

7 حول كيفية اختيار موضع بناء البيمارستانات، ينظر: عبد الواحد المراكشي، **المعجب في تلخيص أخبار المغرب من لدن فتح الأندلس إلى آخر عصر الموحدين**، ضبطه وصححه وعلق حواشيه وأنشأ مقدمته محمد سعيد العريان ومحمد سعيد العلمي (القاهرة: مطبعة الاستقامة، 1368هـ/ 1949م)، ص 287.

8 يتحدث الحسن الوزان عن الرخام الأبيض المجزع طبيعيًا بنقاط خضر مستديرة، ويذكر أنه لا يوجد في أي مكان آخر غير بعض الأمكنة في الأطلس، على بعد خمسمئة ميل من مراكش، ينظر: الحسن بن محمد الوزان الفاسي المعروف بليون الأفريقي، **وصف أفريقيا**، ترجمه عن الفرنسية محمد حجي ومحمد الأخضر، ط 2 (بيروت: دار الغرب الإسلامي؛ الرباط: الشركة العامة للناشرين، 1983)، ص 134.

9 المراكشي، ص 287.

10 المرجع نفسه.

11 المرجع نفسه.

12 اهتممنا بهذه المفردات الطبية الواردة في **المعجب**، في: البضاوية بلكامل، "أشربة وأدهان وأكحال من البيمارستان الموحدي"، في: **التاريخ والمجتمع: أعمال مهداة للأستاذ محمد المنصور**، تنسيق خليل السعداني والبضاوية بلكامل، رقم 89 (الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مطبعة الكرامة، 2021)، ص 109-133.

منه ريثما يستقل، وإن كان غنيًا دفع إليه ماله وترك وسببه، ولم يقصره على الفقراء دون الأغنياء، بل كل من مرض بمراكش من غريب حمل إليه، وعولج إلى أن يستريح، أو يموت. وكان في كل جمعة بعد صلاته يركب ويدخل، يعود المرضى ويسأل عن أهل كل بيت، يقول: كيف حالكم؟ وكيف القومة عليكم؟ إلى غير ذلك من السؤال، ثم يخرج، ولم يزل مستمرًا على هذا إلى أن مات رحمه الله".

يشيع عند عامة الناس وخاصتهم عند إثارتي هذا الموضوع، أن "البيمارستانات هي صنوة المارصطانات، فهي بذلك مجال 'لحبس الحمقى والمجانين'"[13]. يوضح صاحب **المعجب**، من خلال وصفه بيمارستان مراكش، عدم تخصص هذه المؤسسة في الأمراض النفسية والعقلية فحسب، بل تشمل الأمراض كافة، وكل المرضى. لقد عدّد مهمات العاملين في هذه المؤسسة الطبية المراكشية، وبيّن انفتاحها على الشرائح الاجتماعية كافة، والعناية بجميع المرضى الوافدين إلى الدار، سواء كان المريض فقيرًا أم غنيًا، مقيمًا أم عابرَ سبيلٍ، حتى إنها صارت بمنزلة دار للضيافة بالنسبة إلى الغرباء، هذا فضلًا عن أدوارها الأخرى، وعلى رأسها وظائفها التعليمية التي لا تقل أهمية عن الوظائف العلاجية والصيدلانية، قال صاحب **المعجب**: "وأقام فيه من الصيادلة لعمل الأشربة والأدهان والأكحال"[14].

ثانيًا: هل توافر للمغرب بيمارستان آخر في شالة؟

يُسند خطأ إلى الحسن الوزان (ليون الأفريقي)[15] ومارمول كاربخال[16] قولهما[17] إن الخليفة الموحدي يوسف بن عبد المؤمن أحيا - زيادة على بيمارستان مراكش - عمارة شالة وأسّس فيها "مستشفى"[18]، إلّا أن بعض المؤلفين، من القدماء والمحدثين، لهم رأي آخر، فمثلًا الحسن الوزان يتحدث عن زاوية فاخرة وقصر لسكنى جنود المنصور في شالة ليس إلّا[19]، في حين يذكر بوجندار بأن بعض مؤرخي العجم يرجعون ليعقوب المنصور بناء "مستشفى كبير لذوي العاهات والأمراض"[20] بشالة. ويشير جاك كايي إلى تحول المقبرة المرينية خلال القرن الرابع عشر إلى مأوى[21].

لا يعقل أن يتوافر للمغرب في زمن يعقوب المنصور الموحدي بيمارستان واحد. فإذا كانت شالة رباطًا للجيوش المحاربة في الأندلس، فهي في حاجة ماسّة إلى محل للراحة والاستشفاء والعلاج من الأمراض العارضة من وعثاء الطريق. ويمكن في هذه الحالة أن تؤدي زاوية شالة أدوارًا متعددة، ومنها الأدوار التعليمية والعلاجية. لكن ما مصير بيمارستاني مراكش وشالة - هذا في حال توافرت لشالة هذه المؤسسة - بعد أفول نجم الموحدين؟

---

13 ليون الأفريقي، ص 228.

14 المراكشي، ص 287. تعنى المصادر المخصصة للمفردات الطبية بكل مفردة على حدة، وتذكر مختلف أصنافها، ونشير في هذا الصدد، مثلًا، إلى جامع ابن البيطار.

15 ليون الأفريقي، ص 227-229

16 مارمول كاربخال، **أفريقيا** (الرباط: المعرفة، 1989).

17 المرجع نفسه؛ ليون الأفريقي، ص 227-229. قمنا بجرد شامل لهذين الكتابين، فلم نجد فيهما أدنى إشارة إلى بيمارستانات الرباط، وهذا ما ذكرناه في: البضاوية، "البيمارستانات وأدوارها التطبيبية والتعليمية"، ص 275-276.

18 الكانوني، ص 139.

19 ليون الأفريقي، ص 203.

20 أبو عبد الله محمد بوجندار، **مقدمة الفتح من تاريخ رباط الفتح**، سلسلة نصوص ووثائق، رقم 5 (الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مطبعة الأمنية، 2012)، ص 34.

21 Jacques Caillé, *La petite Histoire de Rabat* (Rabat: Imprimerie Oumaia, 2012), p. 40.

ثالثًا: انتقال الموازين: تنوّع أشكال البيمارستانات في الحاضرة فاس (كبرى في الداخل وصغرى خارج الأسوار)

تُجمع المصادر، كما سيأتي بيانه، على تفنن سلاطين بني مرين أكثر من غيرهم من السلاطين في بناء البيمارستانات في ربوع البلاد، خصوصًا أبا الحسن وابنه أبا عنان. لقد انتشرت البيمارستانات في أزمنة حكمهم على نطاق واسع، واختلفت في أحجامها وأشكالها؛ إذ ضمّنوا بعض الحواضر أكثر من بيمارستان، كما يُفهم من إشارات الحسن الوزان[22] الذي ذكر أنه كان لحاضرة فاس بيمارستانات داخل الأسوار، وآخر خارجها، بل اعتبر الموجود في قلب الأسوار أغناها، ولعل بيمارستان "سيدي فرج" أهمها كلها، كما يفيد في معرفة ذلك ما قدمه حوله من وصف، وكذلك معاينتنا له مع أعضاء جمعية تاريخ الطب المغربية ونظيرتها الفرنسية خلال تسعينيات القرن العشرين.

نورد هنا نص الحسن الوزان المتعلق ببيمارستانات فاس، ومنها بيمارستان سيدي فرج كاملًا لأهمية وصفه، حيث قال: "يوجد بفاس بيمارستانات عديدة لا تقل حسنًا عن المدارس التي سبق ذكرها. وكان الغرباء قديمًا يعطون السكن بها لمدة ثلاثة أيام. ويوجد عدد كبير من البيمارستانات خارج أبواب المدينة تقل جمالًا عن التي في داخلها. وكانت البيمارستانات غنية جدًا، إلّا أنه أيام حرب سعيد عندما كان السلطان في أشد الحاجة إلى المال، أشاروا عليه ببيع إيراداتها وأملاكها. ولما رفض السكان بيعها تقدم أحد وكلاء الملك وأفتاه بأن هذه البيمارستانات إنما أُسست بفضل الصدقات التي قدّمها أسلاف الملك. وبقيت البيمارستانات فقيرة محرومة تقريبًا من كل وسائل العمل. ومع ذلك، فإنها تستضيف اليوم بعض الفقهاء الغرباء وأشراف المدينة حفاظًا على الغرف لتبقى في حالة جيدة. وليس لمرضى الغرباء في أيامنا هذه غير بيمارستان واحد لا طبيب فيه ولا علاج. ولا يجد المريض المسكين غير حجرته وطعامه ومن يخدمه إلى أن يموت أو يشفى من مرضه. وفي هذا البيمارستان حجرات مخصصة للحمقى، أي أولئك المجانين الذين يقذفون بالحجر أو يرتكبون أنواعًا أخرى من الأذى [...] وأخيرًا، فإن هذا البيمارستان يتوفر على كل ما يحتاج إليه من كتّاب وممرضين وحرّاس وطبّاخين وغيرهم ممن يهتمون بالمرضى، ويتقاضى كل واحد من هؤلاء المستخدمين أجرًا حسنًا. ولقد عملت وأنا شاب في هذا البيمارستان مدة عامين، حسبما هو معتاد عند الطلبة، وكانت هذه الوظيفة تدرّ عليّ مبلغ ثلاثة مثاقيل في الشهر"[23].

1. بيمارستان سيدي فرج في فاس: من الأوج إلى الأفول

يفيد وجود بيمارستان سيدي فرج في عدوة القرويين، في قلب المدينة القديمة، وبالقرب من مزار مولاي إدريس وجامع القرويين، ومن المدارس المرينية أيضًا، في ضبط الأهمية، إلّا أن القليل من المؤشرات النصية تساعد في ضبط أدواره العلاجية خلال مرحلة الأوج. ولا شك في أن البحث في الأرشيف الخاص بهذه المؤسسة، وبخاصة البحث في أرشيف نظارات الأحباس، سيضيف الجديد إلى معلوماتنا حول الجوانب الخفية في تسيير مثل هذه المؤسسات، ونعتمد على نظرية النقيض، فنعتبر ما أصبح موضوع انتقاد هو مؤشر دال على الضد. فحديث الحسن الوزان (ليون الأفريقي)[24] عن انعدام الطبيب دال على وجوده سابقًا، وذكره استعمال المبنى لإيواء الغرباء والحمقى دليل على استفادة جميع المرضى من خدماته.

22 المرجع نفسه، ص 227-229.

23 بيمارستانات فاس خلال عهد الحماية، بالارتكاز على معلومات ليون الأفريقي في: المرجع نفسه.

24 المرجع نفسه، ص 229.

في اعتقادنا، لا تختلف أدوار البيمارستانات المرينية عن الأدوار التي كانت تضطلع بها مثل هذه المؤسسة خلال العصر الموحدي في المغرب، وفي بقية ربوع العالم الإسلامي في عصور الأوج، وليس في مراحل الأفول.

تحول بيمارستان سيدي فرج في فاس، خلال النصف الثاني من القرن العشرين، إلى قيسارية صغيرة. لقد تمكّنا من معرفة ما كان عليه حجم البيمارستان الفاسي من بعض الصور والتصاميم. ثم إن معايناتنا له بمفردنا، أو بمعية أعضاء من جمعيتي تاريخ الطب المغربية والفرنسية، أكد لنا الأمر. فالمبنى يتكوّن من طبقتين، طبقة سفلية تُفتح على ساحة تلتف حولها محال لبيع الأدوات المنزلية التقليدية، وأخرى علوية تضم العديد من المحال. لكن حالته لا تساعد في تبيّن معالمه الأصلية الممثلة في زخارفه[25].

2. بيمارستانات خارج فضاء العاصمة المرينية فاس

أ. إشارات المصادر

ما يلزم تأكيده هو كون ظاهرة البيمارستانات قد ترسّخت فعلًا في الحاضرة الفاسية خلال العصر المريني، إلّا أنها لم تقتصر على فاس، بل شملت أيضًا بقية جهات المغرب المريني، كما سيأتي بيانه باعتماد المصادر التي نورد أهم ما جاء فيها على النحو الآتي:

قال صاحب **الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية**: "إن السلطان يعقوب بن عبد الحق المريني أول ملوكهم، صنع البيمارستانات في بلاده للمرضى والمجانين، وأجرى عليهم النفقات، وجميع ما يحتاجون إليه من الأغذية، وما يشتهونه من الفواكه والطرد[26]، وأمر الأطباء بتفقّد أحوالهم في أمورهم ومداواتهم وما يُصلح أحوالهم"[27].

وقال محمد بن علي الدكالي (1868-1945)، صاحب **الإتحاف الوجيز في تاريخ العدوتين**: "كان لبني مرين جنوح للخير واعتناء بالدين، فملؤوا المغرب وأمصاره ومدنه مدارس وزوايا ومارستانات"[28].

بلغت البيمارستانات أوجها خلال عهد الملوك الأوائل من بني مرين[29]، بل اشتدت عناية أبي عنان من خلال المصدر نفسه - أي **الإتحاف الوجيز** - أكثر من غيره لبناء "الزوايا والبيمارستانات للفقراء والغرباء والمرضى، وحبس عليها ما يقوم بها وبالواردين عليها".

ب. البيمارستانات المرينية وأدوارها بالعدوتين: سلا ورباط الفتح

تباينت أهمية البيمارستانات المرينية وأدوارها من حاضرة إلى أخرى، وبذلك فالعدوتان - الرباط وسلا - استفادتا بدورهما من هذا النوع من المؤسسات الصحية على غرار بقية حواضر المغرب الأقصى. أقيم بيمارستان سلا وسط حارة اليهود في "حومة" باب حسين، في محل كان فندقًا للزيت قديمًا. وهو بحسب صاحب **الإتحاف الوجيز**: "بناء حفيل مشتمل على بيوت كثيرة لاستقرار

---

25 كان هدفنا أن يتحوّل المبنى إلى متحف للعلوم الطبية؛ وهو المقترح نفسه الذي تبنّته آنذاك الطالبة سناء حسّاب من المعهد الوطني لعلوم الآثار والتراث خلال تقديم بحثها حول هذه المؤسسة أثريًا ومعماريًا. وتأتى لنا التزوّد بنسخة من دراستها، بحكم تتبعنا لبحثها؛ لكن بقي بحثها حبيس الرفوف، ومقترحنا مجرد حلم بعيد المنال.
S. Hassab, "Maristan Sidi- frag, Essai de restauration, de restitution et de réhabilitation," Mémoire de fin d'études des sciences de l'archéologie et du patrimoine," Rabat, 1998-1999, pp. 77-82.

26 لا شك في أن اللفظة تعني الطرائد، وليس الطرب كما ورد في النسخة المحققة للكانوني، في: الكانوني، ص 135.

27 ينسب المؤلف إلى علي بن أبي زرع الفاسي (ت. 726ه/ 1326م)، ويربطه آخرون بمؤلف مجهول. ينظر: مجهول، **الذخيرة السنية في تأريخ الدولة المرينية**، مراجعة وتحقيق محمد بن أبي شنب (الجزائر: مطبعة جون كربونل، 1339ه/ 1920م)؛ علي بن أبي زرع الفاسي، **الذخيرة السنية في تأريخ الدولة المرينية** (الرباط: دار المنصور للطباعة، 1972)، ص 89.

28 محمد بن علي الدكالي، **الإتحاف الوجيز في تاريخ العدوتين**، تحقيق مصطفى بوشعراء (سلا: منشورات الخزانة الصبيحية، 1986)، ص 61.

29 حمل الأمراء الأوائل من بني مرين اسم "أمراء المسلمين"، وتسمَّى أبو عنان "أمير المؤمنين"، وأشهرهم: يعقوب بن عبد الحق (1259-1286م)، وأبو الحسن (1297-1351م) وأبو عنان (1329-1358م).

المرضى والمجانين والحمقى بها". وجاء في مخطوط الفقيه الكانوني قوله: "وقد كتب النابغة السيد جعفر ابن خالد الناصري مقالة حول هذا المستشفى أو المدرسة الطبية، فقال: 'أما بعد فإن الفندق الكائن بحومة باب حسين من مدينة سلا حرسها الله المعروف بفندق أسكور كان في أول الأمر فندقًا للزيت قبل أن يبنيه السلطان أبو عنان مدرسة أو مارستانًا'". وعقّب الفقيه الكانوني قائلًا: "ويمكن الجمع بين كونه مدرسة ومارستانًا، بأنه كان أقسامًا على حساب المدارس الكبرى الطبية والعلمية. فقد كانت البيمارستانات الإسلامية جامعة بين المرضى ومواضع الأطباء، وغالبًا كان هؤلاء الأطباء يشتغلون في بعض الأوقات بتحضير الأدوية واستخراجها من المواد الكيماوية، ويُعلّمون التلاميذ صناعة ذلك علمًا وعملًا. فكان المحل يسمى باعتبار القسم المعد للتعليم، وإلقاء الدروس من الأساتذة مدرسة، ويسمى مارستانًا باعتبار القسم المخصص للمرضى والمجانين ومن في معناهم: وهذا شأن الكليات الآن في العواصم"[30].

لقد عاينا البيمارستان العزيزي السلاوي عدة مرات، منذ عام 2012، أي قبل ترميمه وبعده (الصورة 2). هو محاذٍ لقيسارية الذهب في باب بوحاجة، يُعرف بين السلاويين باسم دار القاضي (الصورة 1). إن نظرة سريعة على الواجهة الداخلية للبيمارستان تُبيّن جمالية هندسته؛ إذ يتخذ شكلًا مستطيلًا، تتوزّع غرفه حول الساحة الفسيحة. وما بقي من رسم زخرفته خارجيًا يُقرّبه من المدارس المرينية، ويكشف عن جمالية زخرفته. يُعوّل على اتخاذه متحفًا للآلات الموسيقية بعدم ترميمه (الصورة 2). ولا نرى غضاضة في ذلك على اعتبار أن القائمين على البيمارستانات عالجوا مرضاهم بالموسيقى[31]. نصبو كذلك إلى أن يصير متحفًا للأدوات الطبية الذي كان مبتغى جمعية تاريخ الطب التي لم يكتب لها الاستمرار، ولا لمشروعها أن يرى النور في بيمارستان سيدي فرج، في فاس.

أما بالنسبة إلى بيمارستانات الرباط، فهي ثلاث وحدات، إلّا أننا لم نعاين إلّا: البيمارستان القديم والبيمارستان الجديد. لقد تحدّث محمد بوجندار عن البيمارستان القديم في رباط الفتح، قائلًا: "ما فيه من مارستانات كالبيمارستان القديم أمام الجامع الكبير قيل إنه من أثر أبي عنان المريني ويدل له تصريح ابن جزي في تهذيب رحلة الطنجي بأن من آثار أبي عنان بناء المارستانات في كل بلد من بلاد المغرب ولا زال اسم المارستان يطلق عليه حتى بعد أن صار منجرة للأحباس أخيرًا"[32].

وأضاف: "وأما المارستان الجديد بضريح سيدي محمد الغاوي فهو من بناء السلطان مولاي عبد الرحمن"[33].

لقد أتاحت لنا المعاينة من جهة، وسؤال بعض الأشخاص المسنين، ومنهم الطاعنون في السن، من جهة أخرى، التأكد من أن المبنى الواقع في الباب الغربي للمسجد الكبير، في جوار مكتبة المعارف، هو البيمارستان القديم المريني. هو مبنى تابع لنظارة الأحباس، واليوم مأهول بالنساء (قيل لي أرامل ومطلّقات ومعوزات)؛ وما زالت معالمه واضحةً إلى اليوم، حيث يشغل حيّزًا مهمًا. فهو ذو شكل مستطيل على غرار البيمارستانَين الفاسي والسلاوي، يتكوّن من طبقتين، وتصطف الغرف حول الفناء الداخلي، وهي صغيرة الحجم. تنم هندسته عمّا كان له من مجد بصفته مدرسة، وبيمارستانًا أيضًا[34]. وعلى خلاف ما ذكرت حسّاب في إشاراتها

30 الكانوني، ص 146.
31 أحمد عيسى بك، **تاريخ البيمارستانات في الإسلام**، ط 2 (بيروت: دار الرائد العربي، 1981)، ص 287.
32 بوجندار، ص 86.
33 المرجع نفسه.
34 البضاوية، "البيمارستانات وأدوارها الطبية والتعليمية"، ص 267-287.

إلى بيمارستنَي الرباط، ومنهما البيمارستان القديم. فهذا الأخير يجاور اليوم مكتبة المعارف التي احتلت مكان سقاية قديمة، وليس مكان البيمارستان[35].

3. بيمارستان سعدي وحيد بمراكش

ستتعرض البيمارستانات للتراجع في آخر عصر بني مرين على يد السلطان المريني أبي سعيد، لانشغاله بالحروب. استمر بعضها بعد ذلك، لكن بتوهج أقل وميضًا. فإذا كان الجهاد[36] من الأولويات أو المقدمات خلال العصر السعدي[37] الذي اعتبرت فيه دولة السعديين (915-1069هـ/ 1509-1661م) في الأساس دولة جهاد؛ واشتهرت بمعركة وادي المخازن 986هـ/ 1578م، فإن الحروب والصراعات لم تمنع هذه الدولة من أن تُعنى بالعلوم، كما بيّن ذلك الفقيه الكانوني، حيث قال: "فتدارك الله بهذه الدولة أمر المغرب، فطهّر الله بهم جل الشواطئ، وجمعت الكلمة، فأحيت المعالم وجددت المحاسن ونشرت رواق الحضارة والعلوم والفنون في ربوع المغرب"[38]. تفيد عبارة الكانوني "أحيت معالم"[39] عودة المؤسسات العامة إلى بعض أمجادها. ولا شك في أن البيمارستانات ستحظى بدورها، بالعناية نفسها، لأنه من عادة دول المغرب إحياء آثار الأول بالحفظ والصيانة. الأمر يصح على الأقل بالنسبة إلى الحواضر الكبرى، ومنها مراكش وفاس ورباط الفتح.

إلّا أننا لا نعرف إلّا بيمارستانًا واحدًا في مراكش خلال العصر السعدي، ينسبه الفقيه الكانوني إلى السلطان السعدي عبد الله الغالب (1557-1574)، الذي بناه في عام 970 هـ/ 1564م[40]، أي سبعة أعوام بعد تولّيه الحكم، وتعد هذه المعلمة – في نظرنا - دليلًا على تجديد الصلة بالماضي الطبي للمغرب الذي أدّت فيه البيمارستانات أدوارًا رائدة في نواحٍ عدة، وساهمت بقسط وافر في تقدم البحث العلمي.

رابعًا: تجدد ظاهرة البيمارستانات في عهد بعض الملوك العلويين وتوقفها في زمن الحماية

جدّد بعض ملوك الدولة العلوية الشريفة هذه المؤسسة كما هو معهود، إلّا أنه ترتب على الأوبئة والمجاعات تفاقم حالة الأوضاع الصحية[41]. فعلى سبيل المثال، كان غلاء الأسعار فاحشًا خلال عام 1073هـ/ 1759م، ولم يمنع هذا الأمر بعض السلاطين من إحياء مؤسسة البيمارستان، وبذلك ينسب إلى السلطان العلوي مولاي عبد الرحمن بناء البيمارستان الجديد في مدينة الرباط[42].

---

35 Hassab, p. 44.

36 قال الكانوني في هذا الشأن: "انتصبت هذه الدولة على رأس القرن التاسع الهجري، وصادفت المغرب في حالة منحطة لدرجة استولى البرتغال على جل شواطئه ورد عدة حملات على دواخله، فانحط المغرب انحطاطًا بيّنًا". ينظر: الكانوني، ص 167.

37 البضاوية بلكامل، "الوضع الطبي السعدي من خلال مؤلف، "تاريخ الطب العربي بالمغرب الأقصى لمحمد بن أحمد العبدي الكانوني (1310-1357هـ/ 1893-1941)"، في: **المعرفة الطبية وتاريخ الأمراض في المغارب**، تنسيق علمي لآسية بنعدادة (الدار البيضاء: مؤسسة الملك عبد العزيز، 2011)، ص 29-47.

38 الكانوني، ص 167.

39 المرجع نفسه.

40 المرجع نفسه.

41 لمعرفة مفصّلة عن أثر الأوبئة في البلاد والعباد، أُحيل إلى المؤلف الجماعي: **الجوائح عبر تاريخ المغرب: الأنواع والأسباب والتدابير**، تنسيق البضاوية بلكامل ومحمد أبيهي، سلسلة بحوث وندوات، رقم 82 (الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مطبعة الأمنية، 2020).

42 عبد العزيز الخمليشي، "مدينة الرباط في القرن التاسع عشر (1818-1912): جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية"، أطروحة أعدت لنيل درجة دكتوراه الدولة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط، 2007، ص 111، هامش 108.

وهكذا، أصبح لمدينة الرباط بيمارستان جديد علوي مكان القديم المريني، وهي بذلك جددت خلال العصر العلوي الصلة بالماضي[43]، بتشييدها هذا المبنى الذي يقع حيث يوجد اليوم ضريح سيدي محمد بن غازي في حومة سيدي فاتح، على بعد بضعة أمتار من باب البيبة، وقريب من الزقاق الذي يحمل اسمه[44].

يعتبر البيمارستان الرباطي الجديد بناءً فسيحًا، تبلغ مساحته حوالى 600 متر مربع. يتكوّن من طبقة أرضية فحسب، وهو بذلك يختلف في شكله عن البيمارستان المريني القديم، المشكل من طبقتين: أرضية وعلوية، كما أسلفنا، والقريب اليوم من سوق السباط، في مقابل المسجد الأعظم.

يتميز البيمارستان الجديد بانفتاحه على زقاق سيدي فاتح من خلال بابين، أحدهما صغير، وهو اليوم خاص بالأدوات المرتبطة بالشعائر الجنائزية، والثاني كبير. ويفضي هذا الأخير إلى ممر يؤدي إلى الساحة التي تشتمل على قسمين متداخلين، أحدهما يتوسط الساحة، وهو مشكّل من غرفتين، إحداهما احتوت على الضريح، والثانية خاصة بالصلاة وقراءة القرآن الكريم. ويتشكّل القسم الثاني من هذا الجناح، من عدة غرف تصطف حول الفناء الداخلي على شكل الحرف اللاتيني "U". لم نتمكّن من معاينة الغرف، لأن بعضها مأهولٌ، والأخرى موصدة بالأقفال، ويظهر من المساحة التي تفصل كل غرفة عن الأخرى بأنها لم تكن عريضة.

كانت تجري في البيمارستان الرباطي الجديد المعالجة نفسها التي توجد في ضريحَي سيدي فرج في فاس، وسيدي أحمد بن عاشر في سلا في مرحلة تدهورهما، بل ما كان يجري في بعض الأضرحة والمزارات، مثل ضريح سيدي علي بوجنون (موقع بناصة قرب مدينة بلقصيري في سهل الغرب) وسيدي علي بنحمدوش (مكناس) وسيدي ميمون (القصر الكبير) وغيرها، فكان المرضى يوثقون بـ "حلقة من حديد توضع حول العنق، ويُربَطون بسلسلة مثبتة في سقف البيت"[45]، أو يُترَكون في غرفة ضيقة مظلمة مكبّلين بالسلاسل. بعبارة أخرى، تحوّلت مؤسسة البيمارستانات ومقامات بعض الأولياء من مكان للعلاج إلى مكان للحبس، ما يدل على تراجع دور البيمارستانات الطبي والتعليمي إلى "مارصطان للمعتوهين والحمقى"[46]. وإذا كانت إدارة البيمارستان في سالف العصور والأزمان توكل لأمين مشهود له بالكفاءة في الطب[47]، يشتغل تحت إدارته طاقم طبي متعدد الاختصاصات وصيادلة مكلّفون بتحضير الأشربة والأدهان والأكحال، وأطر مكلفة بالتسيير والإنفاق، ثم مكلفون من القومة بالطبخ والمكلفون بالنظافة، فتعيين مقدم على رأس بيمارستان الرباط مثلًا، وضعف الأملاك المحبسة عليه، مقارنة بما خص به المسجد الأعظم، التي نذكر منها خلال عام 1334هـ/ 1915-1916م، حانوتين وثلاث أراضٍ حراثية، تؤكد سر تغيير ليس أدوار البيمارستانات فحسب، بل كذلك تسميتها بالمارصطانات، فهذه اللفظة ذات الحمولة القدحية تمحي بجرة قلم ثمانية قرون من المجد والعزة لهذه المؤسسة الطبية العربية بامتياز.

---

43 وعلى غرار العواصم التقليدية الثلاث، وكذا سلا التي توافر لها بيمارستان قديم مريني في فندق أسكور، في حومة باب حسين، وجديد علوي في ضريح سيدي الحاج أحمد بن عاشر، ازدانت الرباط بدورها ببيمارستان جديد علوي.

44 المرجع نفسه، ص 138.

45 المرجع نفسه، ص 128.

46 تراجع أدوار البيمارستانات يشرح سبب تعريف داود الأنطاكي (ت. 1008هـ) له على هذا النحو: "المحل الذي فيه المجانين". ينظر: داود بن عمر الأنطاكي، **تذكرة أولي الألباب والجامع للعجب العجاب** (القاهرة: دار الفكر، 1952)، ص 302.

47 لا شك في أنه كانت لأطباء المغرب الأقصى - خلال المرحلة التي تعنينا، أي بين القرن الثاني عشر الميلادي الذي يوافق العصر الموحدي وبداية الحماية - إضافة إلى البيمارستانات والبيوتات والأسواق والمحال والمساجد، كما تفيد في معرفة ذلك مختلف المراجع القديمة والمتخصصة بالحضارة الإسلامية.

خاتمة

كانت البيمارستانات المغربية في أول عهدها تضاهي في بديع صنعها بقية بيمارستانات العالم الإسلامي، وعلى رأسها البيمارستان الموحدي في الحاضرة مراكش.

كان الأطباء يسهرون على علاج جميع المرضى، بغض النظر عن مستواهم الاجتماعي، بل حتى عابر السبيل كان ينعم بخيراتها، ويستظل الطائر بظلها، كيف لا، وملوك الدولة أنفسهم يُغدقون عليها من خيراتهم الشيء الكثير. حضرت فيها أنواع من الأشربة والأدهان والأكحال، وهيّأ الطباخون ألذ الأطعمة وأشهاها، بل كان للمرضى لباس صيف، وآخر للشتاء. لقد تعددت أيضًا أشكالها وأحجامها، كما كان الأمر في الحاضرة فاس.

سيصيب البيمارستانات المغربية ما يصيب الكائن البشري وحضارته من الهرم والتداعي، وذلك بتعرضها للهزات والكوارث ونوائب الدهر بالتدريج. هجرها المرضى، واقتصرت على علاج الأمراض العقلية فحسب، إلى أن صارت حبسًا لهم. لقد تحدث أحد الأفراد المستجيبين عن انتقال المرضى من ضريح محمد بن غازي نحو مستشفى الرازي في سلا، وكأن البيمارستانات لم تكن يومًا ما مؤسسة رائدة في مجالات الطب والصيدلة والتعليم.

غابت لفظة "بيمارستانات" عن قواميس اللغة المعاصرة، فأضحى مصطلح "المارسطان" هو المتداول والغالب؛ وكأن المؤسسة كانت حكرًا على أنواع من المرضى دون غيرهم. عشش الخراب على بعضها منذ مطلع القرن الماضي، وتوقفت عقاربها منتظرة من ينفض عنها غبار السنين بتعهدها بالترميم والصيانة. شكت من نوائب الدهر، فلم تجد من يجيب. وتحوّلت وظيفة بعضها من بيمارستانات إلى قيسارية أو ملجأ نفسي أو عقلي للمرضى، أو غدت مشروعًا كمتحف للآلات الموسيقية العتيقة.

المراجع

العربية

الأنطاكي، داود بن عمر. **تذكرة أولي الألباب والجامع للعجب العجاب**. القاهرة: دار الفكر، 1952.

بوجندار، أبو عبد الله محمد. **مقدمة الفتح من تاريخ رباط الفتح**. سلسلة نصوص ووثائق، رقم 5. الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مطبعة الأمنية، 2012.

الثقافة أساس التفاهم والتطور والحوار: أعمال ندوة تكريم الدكتور محمد ابن شقرون. الرباط: منشورات المعهد الجامعي للبحث العلمي، 1999.

التاريخ والمجتمع: أعمال مهداة للأستاذ محمد المنصور. تنسيق خليل السعداني والبضاوية بلكامل. رقم 89. الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مطبعة الكرامة، 2021.

الجوائح عبر تاريخ المغرب: الأنواع والأسباب والتدابير. تنسيق البضاوية بلكامل ومحمد أبيهي. سلسلة بحوث وندوات، رقم 82. الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مطبعة الأمنية، 2020.

الخمليشي، عبد العزيز. "مدينة الرباط في القرن التاسع عشر (1818-1912): جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية". أطروحة أعدت لنيل درجة دكتوراه الدولة. كلية الآداب والعلوم الإنسانية. جامعة محمد الخامس. الرباط. 2007.

الدكالي، محمد بن علي. **الإتحاف الوجيز في تاريخ العدوتين**. تحقيق مصطفى بوشعراء. سلا: منشورات الخزانة الصبيحية، 1986.

عيسى بك، أحمد. **تاريخ البيمارستانات في الإسلام**. دمشق: المطبعة الهاشمية، 1939.

_____. **تاريخ البيمارستانات في الإسلام**. ط 2. بيروت: دار الرائد العربي، 1981.

الفاسي، علي بن أبي زرع. **الذخيرة السنية في تأريخ الدولة المرينية**. الرباط: دار المنصور للطباعة، 1972.

كاربخال، مارمول. **أفريقيا**. الرباط: المعرفة، 1989.

الكانوني، محمد بن أحمد العبدي. **تاريخ الطب العربي في عصر دول المغرب الأقصى**. تحقيق علال ركوك ومحمد بالوز. الرباط: مطابع الرباط نت، 2013.

مجهول. **الاستبصار في عجائب الأمصار**. نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد. بغداد: دار الشؤون الثقافية، 1986.

مجهول. **الذخيرة السنية في تأريخ الدولة المرينية**. مراجعة وتحقيق محمد بن أبي شنب. الجزائر: مطبعة جون كربونل، 1339هـ/ 1920م.

مدينة القصر الكبير: الذاكرة والحاضر: أعمال الندوة المنظمة من 1 إلى 3 أبريل 1998. تنسيق وتقديم محمد المغراوي. سلسلة الندوات، رقم 1. سلا: منشورات مجموعة الدراسات والأبحاث حول القصر الكبير، 2000.

المراكشي، عبد الواحد. **المعجب في تلخيص أخبار المغرب من لدن فتح الأندلس إلى آخر عصر الموحدين**. ضبطه وصححه وعلق حواشيه وأنشأ مقدمته محمد سعيد العريان ومحمد سعيد العلمي. القاهرة: مطبعة الاستقامة، 1368هـ/ 1949م.

المعرفة الطبية وتاريخ الأمراض في المغارب. تنسيق علمي لآسية بنعدادة. الدار البيضاء: مؤسسة الملك عبد العزيز، 2011.

المغراوي، محمد. **الموحدون وأزمات المجتمع**. الرباط: جذور للنشر، 2006.

الوزان الفاسي، الحسن بن محمد المعروف بليون الأفريقي. **وصف أفريقيا**. ترجمه عن الفرنسية محمد حجي ومحمد الأخضر. ط 2. بيروت: دار الغرب الإسلامي؛ الرباط: الشركة العامة للناشرين، 1983.

الأجنبية

Caillé, Jacques. *La petite histoire de Rabat*. Rabat: Imprimerie Oumaia, 2012.

Hassab, S. "Maristan Sidi-frag, Essai de restauration, de restitution et de réhabilitation." Mémoire de fin d'études des sciences de l'archéologie et du patrimoine. Rabat, 1998-1999.

Mossaoui, Driss & Michel Roux-Dessarps (dir). *Histoire de la médecine au Maroc et dans les pays arabes et musulmans*. Casablanca: Najah el Jadida, 1995.

ملحق

الصورة (1)
البيمارستان العزيزي في سلا (المدخل قبل ترميمه)

المصدر: المعاينة الميدانية، 1992.

الصورة (2)
البيمارستان العزيزي في سلا (المدخل بعد الترميم)

المصدر: المعاينة الميدانية، 2018.